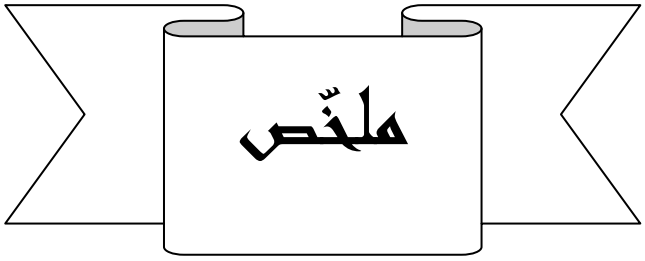
ملخّص

خلال القرون السّبعة الهجريّة الأولى، تكاتفت جهودُ البلاغيين والنّقاد للاضطلاع بمهمّةٍ مقدّسةٍ ؛ هي إثباتُ الإعجاز في النّص القرآنيّ، لا سيّما وأنّه تعرّض طوال هذه الفترة إلى هجماتٍ ذات توجّهاتٍ مختلفة، فكان الإعجازُ البيانيُّ هو أحدُ أهّم الأسلحة التي استخدمها علماءُ الإسلام للردّ على الحاقدين والمشكّكين في كتاب الله تعالى.

وقد عُرف أصحابُ هذه الجهود المبذولة والتي تُرجمت كتبًا قيّمةً، بأنّهم أولوا العملية الإبداعية بمحاورها الثّلاثة ؛ المبدع – النّص – المتلقّي ، الاهتمام الكبير، خاصّة الطرف الأخير الذي كان يجبُ أن يقتنعَ بإعجاز النّص القرآنيّ ، فكان أن ألحُّوا على أن يفهمَ هذا القارئُ معنى النّص وأن يتذوّقَ جمالياتِه، وعلى أن تكونَ البلاغةُ هي حلقةُ الوصل بينه وبين الطرفيْن الأخريين للعملية الإبداعية.

ومع أنّ الرُّؤى اختلفت بين هؤلاء العلماء في كيفية إقناع المتلقّي ، فذهب بعضُهم مذهبَ اللفظية وآثر آخرون أن تكونَ المعاني هي المعبرُ إليه ، إلاّ أنّ الكثيرين منهم أكّدوا على ضرورة التّلاحم بين اللفظ و المعنى وتقديمهما إلى القارئ ليلعبَ هو الآخر دورَه المنوط به والمتمثّل في الكشف عن المعنى المقصود بدل تلقّيه جاهزًا.

أمّا الممارسةُ النّقديةُ فتعدّدت واختلفت من عالم إعجازيّ لآخر ، فبعد أن كانت الدّلائلُ المقدّمة لإثبات الإعجاز تنحصرُ في دائرة الاقتناع الفطريّ والإحساس النّفسيّ ، ما لبثت أن دخلت مجال التّعليل ، خاصّة بعد أن انفتحت العقلية العربية على شتّى العلوم والثّقافات، فلم تعد الفطرةُ وحدها كفيلةً بإقناع العامّة والخاصّة بأسرار كتاب الله العزيز ، فتمّ انفصال علوم الإعجاز عن التّفسير لتقترنَ بميادينِ بحثٍ أخرى ، كان أهمّها النّقد الأدبيّ ، والذي لم يكن موجّهًا أساسًا لخدمة قضية الإعجاز كما كانت البلاغة. فتناول علماء الإسلام ممّن اضطلعوا بمهمّة الدّفاع عن كتاب الله ؛ مسائل نقدية غاية في الأهميّة ؛ نحو طرق أداء

المعنى وكيفية التصرّف في الخطاب وجماليات التعبير القرآنيّ ومقارنة القرآن بالشّعر. كما ثار بعضُهم على من استنبط المقاييس النّقدية من التّراث اليونانيّ.

فالدّراساتُ الإعجازيةُ – إذًا– لعبت دورًا كبيرًا في تطوّر النّقد الأدبيّ العربيّ ، إذ أنّ الإعجازيين حينما تباحثوا النّص القرآنيّ اكتشفوا القيم الفنيّة المقدّسة وحوّلوها إلى مفاهيم جمالية عُدّت بعد ذلك مقاييس نقدية عُرفت بها مستوياتُ الجودة في النّص البشريّ. فلعبوا بذلك دورين أساسيين ؛ خدمة النّص القرآنيّ والتمرّس في النقد الأدبيّ ، وهذا على اختلاف توجّهاتهم العقائدية ومذاهبهم الفنيّة ؛ سواء أكانوا معتزلة نحو الجاحظ والرّماني وعبد الجبّار والزّمخشري، أم أشاعرة كالباقلاّني والجرجاني والرّازي ، أم أهل سُنّة كالخطّابي ، أم حتّى من الظّاهرية الذين يُعرِضون عن تأويل النّصوص كابن حزم الأندلسيّ.

وقاربت القرون السّبعة على الانتهاء ، فاتّجهت الدّراسات الإعجازية–النّقدية التي قامت طوال هذه الفترة على مراعاة الذّوق والطّبع والجمال، نحو العقلانية ووضعت القواعد والحدود فتوجّهت نحو الرّكود والجمود، بل إنّها سقطت أخيرا في شَرَكِ البديع المتكلّف، ومضت تتّبعُ منهجا يعتمدُ على كثرة المصطلحات وتشعّب الجزئيات، فابتعدت بذلك عن ميدان الفنّ الذي احتضنها طويلا.